في الاجتماع اللغوي

تطور اللغـــة وارتقاؤها

أثر العوامل الأدبية المقصودة : الرسم

للدكتور على عبد الواحد وافى

مدرس الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

تشمل هـذه الطائفة من العوامل جميع ما يبذله الأفراد والهيئات من جهود مقصودة فى سبيل حفظ اللغة وتعليمها ، وتوسيع نطاقها ، وتكملة نقصها ، وتهذيبها من نواحى المفردات والقواعد والأساليب ، وتدوين آثارها ، واستخدامها فى الترجمة والتأليف الأدبى والعلمى ... وهلم جرا

وتمتاز هذه الطائفة من العوامل عن الطوائف الثلاث التى تكلمنا عنها فى المقالات السابقة بأنها أمور مقصودة ، تسيرها الإرادة الإنسانية ؛ على حين أن الطوائف السابقة تتمثل مظاهرها فى أمور غير مقصودة تحدث من تلقاء نفسها ، وتبدو آثارها فى صورة جبرية لا اختيار للانسان فيها ولا يد له على وقفها أو تغيير ما تؤدى إليه ، وتمتاز عنها كذلك بأن هدفها الأصلى هو لغة الكتابة ، بينما تتجه آثار الطوائف السابقة بشكل مباشر إلى لغات المحادثة

ولهذه الطائفة مظاهر كثيرة من أهمها : الرسم ، والتجديد فى اللغة ، والبحوث اللغوية ، وحركة التأليف والترجمة ، ووسائل تعليم اللغة . وسنعرض فى هـذا المقال لبعض نواحى الرسم ، مرجئين التكلم عن نواحيه الأخرى وعن بقية العوامل الأدبية إلى المقالات التالية .

* * *

لم يتح الرسم إلا لعدد قليل من اللغات الإنسانية ، أما معظمها فقد اعتمدت حياته على مجرد التناقل الشفوى ، فالشرط الأساسى فى حياة اللغة هو التكلم بها لا رسمها ، فكثيراً ما تعيش اللغة بدون أن يكون لها سند تحريرى ، ولكن من المستحيل أن تنشأ لغة أو تبقى بدون أن يكون لها مظهر صوتى . ويصدق هذا حتى على اللغات الصناعية نفسها كالإسبرنتو Espéranto وما إليها ، فمن المتعذر أن تتاح الحياة للغة من هـذا النوع ما لم تتداولها الألسنة وتصبح أداة للكلام ، ولذلك كان أول ما يتجه إليه المفكرون فى هذا النوع من اللغات هو وضع أصواته وأسلوب نطقه والبحث فى وسائل انتشار التحدث به

وعلى الرغم من ذلك ، فللرسم فى حياة اللغة ونهضتها آثار

غير المسلم من قوم معاهدين ، ولم يوجبها فى قتل المسلم من قوم غير معاهدين .

تلكم شرعة الإسلام فى رعاية العهود ، وهى التى سار عليها المسلمون فى سلمهم وحربهم فكانوا أوفى ذمة وأثبت عهداً . . . تنطق بذلك سيرهم منذ جاءهم الإسلام حتى اليوم . كان للعهد عندهم حرمة لا تمتهن ، فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء . كان العهد الذى يعطيه أقل رجل من المسلمين ولو عبداً — نافذاً على المسلمين جميعاً لا يقبل تأويلاً ولا تبديلاً .

إن حفظ العهود لباقى الأمن والطمأنينة فى نفوس الأفراد والأمم ويقيم أمور الناس على شريعة من المودة والإنصاف والتعاون . وإن العالم ليزلزل اليوم بما استخف بالعهود واتخذها وسيلة إلى المطامع ؛ فلم يركن الناس إلى معاهدة ، ولم يأمنوا الغدر والمفاجأة ، فصاروا فى ريبة وحيرة ، وزال ما كان يثبت الأمم من مواثيق تؤمن بها وتركن إليها وتسير فى تدبيرها عليها . صار الوعد لا يدل على الوفاء ، والعهد لا يؤمن من الغدر ، فاضطرب الناس فهم فى أمر مريج

وقد حدثنا القرآن عن بلاد أهلكت وأخبرنا أن مما أهلكوا به استخفافهم بالعهد فقال : « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون . تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك نطبع على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » ... صدق الله العظيم

عبد الوهاب عزام

تجل عن الحصر . فبفضله تضبط اللغة ، وتدون آثارها ، ويسجل ما يصل إليه الذهن الإنسانى ، وتنتشر المعارف ، وتنتقل الحقائق فى الزمان والمكان . وهو قوام اللغات الفصحى أو لغات الكتابة ودعامة بقائها . وبفضله كذلك أمكننا الوقوف على كثير من اللغات الميتة كالسنسكريتية ، والمصرية القديمة ، والإغريقية ، واللاتينية ، والقوطية ؛ فلولا ما وصلنا من الآثار المكتوبة بهذه اللغات ما عرفنا منها شيئاً ولضاعت منا مراحل كثيرة من مراحل التطور اللغوى

وترجع أساليب الرسم التى استخدمت فى مختلف اللغات إلى أسلوبين اثنين :

(أحدهما) أسلوب الرسم المعنوى Idéographie, écriture idéographique وهو الذى يضع لكل معنى صورة خطية خاصة وقد استخدم هذا الأسلوب فى لغات كثيرة ، منها الصينية والمصرية القديمة[1] ولا نعلم على وجه اليقين أول أمة استخدمته ولكن يظهر من شواهد كثيرة أنه أقدم أساليب الرسم الإنسانى

وترجع الصور الخطية التى تستخدم فى هذا الأسلوب إلى نوعين ، فأحياناً تكون صوراً حقيقية للأشياء التى يراد التعبير عنها ، أو لأجزاء من هذه الأشياء ؛ كما يشير الرسم الهيروغليفى إلى الشمس بدائرة فى وسطها نقطة ، وإلى القمر بقوس فى وسطه نتوء ، وإلى الزنبق بثلاثة فروع من شجرته فى طرف كل منها ثلاث زنبقات ، وإلى الصقر بصورته واقفاً ... وهلم جرا . وأحياناً تكون مجرد رموز مصطلح عليها للتعبير عن الأشياء والمعانى Symbolisme ، كما يشير الرسم الهيروغليفى إلى الشهر بصورة هلال فى وسطه نجمة ، وإلى اليوم بدائرة فى وسطها نقطة ؛ وكما يشير الرسم الصينى لمعنى الإنسانية بخطين يتكون منهما شكل يشبه رقم ٨

ولهذا الأسلوب من الرسم عيوب كثيرة . فهو أسلوب يقتضى الكاتب إسرافاً كبيراً فى الوقت والجهود . ولكثرة صوره ورموزه تبعاً لكثرة المعانى والأشياء ، يقتضى تعلمه وتعليمه جهوداً شاقة وزمناً طويلاً . ولذلك يقضى كثير من الصينيين زهرة شبابهم فى المدارس بدون أن يتموا تعلم الرسم الصينى ، وهو لا يقوى على تأدية وظيفته إلا فى صورة ناقصة مبتورة ؛ إذ من المستحيل ، مهما كثرت صوره وتعددت رموزه ، أن ينتظم جميع ما يخطر بالذهن الإنسانى من معان وأفكار وجميع ما ينطق به اللسان من ألفاظ وعبارات . هذا إلى أنه بمقتضاه لا يوجد للمعنى الواحد أكثر من صورة واحدة ، مع أنه فى معظم اللغات الإنسانية كثيراً ما يوجد للمعنى الواحد عدة ألفاظ مترادفة . فاستخدامه فى حالات كهذه يوقع فى اللبس ويؤدى إلى الاضطراب

(وثانيهما) أسلوب الرسم الصوتى Ecriture phonétique, ou, phonétisme الذى يضع لكل صوت صورة خاصة . وقد استخدم هذا الأسلوب من الرسم فى كثير من اللغات القديمة ، ويستخدم الآن فى معظم الشعوب المتمدينة

وترجع الصور الخطية التى استخدمت فى هذا الرسم إلى طائفتين : إحداهما الصور المقطعية Syllabique وهى التى ترمز إلى مقاطع كاملة كما يرمز فى الهيروغليفى بشكل الشفتين إلى مقطع را ra والأخرى الصور الهجائية Alphabetique وهى التى ترمز إلى أصوات ساكنة ، كما يرمز فى الرسم العربى بهذا الحرف «ل» إلى صوت اللام مجرداً من جميع الحركات

ويظهر أن قدماء المصريين كانوا أول من استخدم هذا الأسلوب بنوعيه (المقطعى والهجائى) منذ أكثر من ثلاثين قرناً قبل الميلاد . فمن بين صور الخط الهيروغليفى ما يرمز إلى مقاطع صوتية (صورة الشفتين مثلاً التى تعبر عن مقطع «را») بل من بينها ما يرمز إلى مجرد أصوات ساكنة (صورة الشفتين

---

(١) يرتكز الرسم الصينى على ٢١٤ رمزاً أصلياً (تسمى بالمفاتيح clefs أو الأصول radieaux) ، يعبر كل رمز منها عن معنى عام ، ويبين المقصود منه عدد الخطوط التى تضاف إلى هذا الرمز ونوعها

أما الرسم المصرى القديم فيسمى بالهيروغليفى Hiérogliphe . وقد اجتاز هذا الرسم أربع مراحل . فقد كان فى المبدأ تصويراً للأشياء ، فيعبر عن الشمس مثلا بدائرة فى وسطها نقطة ، وعن القمر بقوس فى وسطه نتوء ... وهلم جرا . ثم دخل فيه بعد ذلك طريقة الرموز البسيطة والمركبة فيعبر مثلا عن اليوم بصورة الشمس (دائرة فى وسطها نقطة) ، وعن الشهر بصورة نجمة تعلوها صورة قمر مستعرضة (قوس فى وسطه نتوء) . وفى المرحلة الثالثة دخلت فيه الطريقة الصوتية المقطعية ؛ فاستخدمت مثلا الصورة التى كان يعبر بها قديما عن الفم (وهى صورة الشفتين) للتعبير عن مقطع « را ra » . وفى المرحلة الأخيرة دخلت فيه الطريقة الهجائية فاستخدمت مثلا الصورة السابقة لا للتعبير عن مقطع « را » بل للتعبير عن صوت الراء الساكنة غير المتبوعة بحركة كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربية . والمظهران الأولان فقط (الصورى والرمزى) هما اللذان يعدان من النوع الذى نحن بصدد الكلام عنه . أما المظهران الأخيران (المقطعى والهجائى) فمن النوع الثانى الذى سنتكلم عنه وهو الرسم الصوتى .

مثلاً التى أصبحت ترمز فيما بعد إلى صوت الراء غير المتبوع بأى حركة ، كما هو شأن الراء فى الحروف الهجائية العربية) . غير أن قدماء المصريين لم يستخدموا هـذا الأسلوب وحده ، بل مزجوه بالأسلوب الأول . فالرسم الهيروغليفى خليط من الرسم الصوتى والرسم المعنوى ؛ يستخدم بجانب الصور المقطعية والهجائية صوراً حقيقية ورمزية

ومن الراجح أن الفينيقيين هم أول من استخدم الأسلوب الهجائى وحده . وقد اضطرهم إلى ذلك نشاطهم التجارى وكثرة تنقلهم وتعدد علاقاتهم بمختلف الشعوب . فقد كانت هذه الشئون تقتضيهم فى جميع أعمالهم السرعة فى الحركة ، والاقتصاد فى المجهود ، وتجرى وجوه الدقة . والأسلوب الهجائى هو أسرع أساليب الرسم ، وأيسرها وأدناها إلى الكمال . وليس من شك فى أنهم حاكوا فى أسلوبهم هذا ما كان يشتمل عليه الخط الهيروغليفى من صور هجائية . على أنه قد ثبت أنهم أخذوا أخذاً عن هذا الخط نحو ثلاثة عشر حرفاً من حروفهم

وقد انتشرت حروف الهجاء الفينيقية فى معظم أنحاء العالم القديم واستخدم اكثير من شعوبه ؛ ومنها تفرعت بشكل مباشر أو غير مباشر جميع حروف الهجاء التى استخدمت فيما بعد فى مختلف اللغات الإنسانية

فمن الحروف الفينيقية اشتقت الحروف العبرية القديمة ، ومن هـذه اشتق الرسم العبرى الحديث (الحروف العبرية المربعة l'hebreu carré) الذى استخدم بعد رجوع بنى إسرائيل من نفى بابل ، وظل مستخدماً إلى الآن بدون أن يناله تغيير ذو بال

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك نوعان من الرسم قريبا الشبه بالعبرية الحديثة (الحروف العبرية المربعة) : أحدهما الخط التدمرى[1] (أو البالميرى Palmyrénien[2]) ؛ والآخر الخط النبطى Nabatéen . ومن التدمرى اشتقت الحروف السريانية التى أخذت منها الخطوط النسولية والنشورية . ومن الخط النبطى والخط السرياني اشتقت حروف الهجاء العربية .

(١) نسبة إلى تدمر وهي مملكة قديمة كانت تشمل جزءا كبيراً من سوريا الحالية . ومعنى تدمر فى العبرية بلاد النخيل

(٢) نسبة إلى باليرين Palmyrène وهو اسم فرنسى لبلاد تدمر . ومعناه فى الفرنسية هو نفس معنى تدمر فى العبرية ، أى بلاد النخيل

ومن الرسم الفينيقى أخذ كذلك الرسم الآرامى ، بل إن الرسم الآرامى فى أقدم أشكاله لا يكاد يختلف عن الرسم الفينيقى . وعن الآرامية أخذت الحروف الهندية الباكتريانية (Indo-Bacterien [1]) التى كانت مستخدمة فى شمال الهند ؛ ومن هذه الحروف اشتقت جميع الحروف المستخدمة الآن فى مختلف لغات الهند وسيام Siam وكمبدج Cambodge (بالهند الصينية) وماليزيا Malaisie .

ومن الحروف الفينيقية اشتق كذلك الرسم الإغريقى ؛ ومن الرسم الإغريقى أخذت الحروف اللاتينية ، ومن الرسمين اللاتينى والإغريقى تفرعت جميع أنواع الرسم المستخدمة فى مختلف اللغات الأوربية فى العصر الحاضر .

على فهمى الرامى رافى
ليسانسيه ودكتور فى الآداب من جامعة السربون

(١) نسبة إلى باكتريان Bactrian ، وهى منطقة قديمة كان يسكنها الايرانيون وتشمل بعض مناطق تركستان وفارس